جامعــة المســيلة. كليــة العلــوم الإنسانية والاجتماعية

قســـم الفســـفة. مقيـــاس الفلسفة الغربية المعاصرة

المستوى: السنة الثانية ماستر(السداسي الثالث)
الموسم الجامعي: 2022/ 2023

رواد الشك المعاصر: نتشه نموذجا

تمهيد: يمكن ابتداء طرح جملة من الأسئلة، من هو نيتشه ؟ وما هي إسهاماته الثقافية عامة والفلسفية خاصة والتي جذبت الاهتمام إليه؟ حقيقة إن نيتشه هو فيلسوف ألماني مشكل في تاريخ الثقافة الأوربية. وهو والفيلسوف سورين كيركيجورد يعدان المنبعين الروحيين للفلسفة الوجودية . بدأ نيتشه نشاطه العلمي والأكاديمي باحثا في علم فقه اللغة الكلاسيكي . وكتب العديد من النصوص النقدية في الدين ، والأخلاق ، والحضارة المعاصرة ، والفلسفة والعلم . وقد تميز بخطابه المتفرد ، وكان مغرماً باستخدام المجاز ، والأسلوب الساخر والحكم المختصرة .

حياته: فريدريش ڤلهلم نيتشه فيلسوف وعالم لغويات ألماني. ولد في روكن Rocken قرب مدينة لايپزيگ بپروسيا يوم عيد الملك فريدريش ڤلهلم الرابع، فسمي باسمه ومات في ڤايمار. وهو من أسرة من القساوسة، لكنه كان شديد الإلحاد فجعله محور كتاباته، تيتم باكراً من والده، فتولّت تربيته نسوة العائلة اللاتي أسرفن في تدليله وملاطفته ، فقد قضى طفولة سعيدة، وكان تلميذاً مهذباً صادقاً مطواعاً حتى أطلق عليه اسم القسيس الصغير، أرادته أمه قسّاً كأبيه فالتحق وهو في الثانية عشرة من عمره بمدرسة بفورتا Schulpforta، لكنه ع دل عن ذلك بعد أن فقد إيمانه في الثامنة عشرة من عمره، فمّر بمرحلة من الشك والتشتت، خرج منها بالتحاقه بجامعة بون ثم بجامعة لايپزيگ (1864-1869).

سُمي نيتشه سنة 1868 أستاذ فقه اللغة اليونانية (الفيلولوجيا) في جامعة بازل بسويسرا بعد أن مُنح درجة الدكتوراه ليتم التعيين طبقاً للّوائح ، ولفت الأنظار إليه نشره عدة مقالات في مجلة ريتشل Ritschl.

ولما نشبت الحرب بين ألمانيا وفرنسا (1870) تطوع في الجيش، ولأنه أصبح مواطناً سويسرياً كان عليه أن يكتفي بالعمل ممرضاً في الخدمة العسكرية.

وبعد أن تدهورت صحته أُعفي من الخدمة وأعيد إلى بازل. ولم يشفَ أبداً من الأمراض التي أصابته في أثناء تجنيده، فاضطر إلى الاستقالة من الجامعة والتدريس سنة 1879، وقد رصدت له الجامعة راتباً جيداً يحيا منه. وقد قضى الأعوام العشرة التالية متنقلاً بين سويسرا وإيطاليا، مواصلاً عمله التأليفي، وكان في معظم الأحيان منعزلاً لا يعترف به أحد. وانتهى به المرض سنة 1889 إلى الشلل الكلي والجنون، فأرسل إلى المشفى العقلي في بازل وينا Jena ثم أعيد إلى أمه في ناومبرگ سنة 1890، ولما ماتت تعهدته أخته في ڤايمار سنة 1897، وباشرت نشر كتبه وظلّت ترعاه إلى حين وفاته.

قلنا إن بداية نيتشه كانت مع فقه اللغة الكلاسيكي (الفيلولوجي) . إلا إنه تحول بعد ذلك إلى مضمار الفلسفة . ففي سن الرابعة والعشرين أصبح رئيساً لقسم علم فقه اللغة الكلاسيكي في جامعة باسال (وهو أصغر أستاذ أحتل هذا الموقع) . ولكنه إستقال عن رئاسة القسم لأسباب صحية ، والتي تحكمت بمصيره لفترة طويلة . وفي العام 1889 تعرض إلى إنهيار عصبي ، تركه في حالة إختلال عقلي شديد ، لازمه حتى وفاته في العام 1900 .

أهم المؤثرات على فلسفته: ومن الكتابات المؤثرة في تفكير نيتشه حياة السيد المسيح . فقد درسها من خلال كتابات ديفيد ستراوس (1874 – 1808) المعنونة " حياة السيد المسيح " والتي تركت أثاراً عميقة على شخصية وتفكير الشاب نيتشه ، والتي ستتطور لاحقاً في مشروعه المثير للجدل " المسيح الدجال " . ولكن في الحقيقة هناك عمل مهم جداً سبق هذا المشروع ، وهو مقاله المعنون : القدر والتاريخ ، والذي نشر في العام 1862 . وهنا كانت البداية النقدية النيتشوية للتعاليم المسيحية ، خصوصاً في بعدها التاريخي ، ومن ثم تتوجت في المشروع الهدمي " المسيح الدجال " .

تابع نيتشه في هذه الفترة دراساته في علم فقه اللغة ، وكان يجري هذه الدراسات تحت إشراف البرفسور ويلهلم ريتشل (1876 – 1806) ، الذي لعب دوراً مؤثراً في مستقبل نيتشه ألأكاديمي ، خصوصاً بعد إن نشر نيتشه أول مطبوع له في علم فقه اللغة . فقد رشح ريتشل نيتشه لأن يكون رئيساً لقسم فقه اللغة الكلاسيكي في جامعة باسال .

وفي العام 1865 أكتشف نيتشه الفيلسوف شوبنهاور ، ومن ثم ركز على دراسة أعماله الفلسفية . ويقول نيتشه معلقاً على إكتشافه : " لقد أيقض شوبنهاور في نفسي نوازع الاهتمام بالفلسفة " . وكان للإحترام الكبير الذي يكنه نيتشه لشخصية شوبنهاور ،هو الذي حمله على كتابة مقاله المعنون : المربي شوبنهاور .

ونرى بالإضافة إلى شوبنهاور ، فقد تأثر بالفيلسوف اليوناني هرقليطس (قبل الميلاد 475 – 535)ـ ، وكان عارفاً بتفاصيل الفلسفة اليونانية . كما إنه قرأ كانط ، وجون ستيوارت ميل ، ودرس في وقت مبكر الداروينية التي ظهرت أثارها في فكرة العلو والسوبرمان . وأطلع على فكر تولستوي (1910 – 1828) الديني ، وقرأ بودلير (1868 – 1821) ، ومن ثم ديستوفسكي (1881 – 1821) والذي يقول نيتشه عنه : " إنه السيكولوجي الوحيد الذي تعلمت منه كل شئ " (أنظر : محمد جلوب الفرحان ؛ نيتشه وهكذا تكلم زرادشت : بين الأصل والتوظيف الفلسفي ، ص 5 – 6) .

مؤلفاته: من أهم مؤلفات نيتشه : ولادة التراجيديا (نشرت عام 1872) ، التأملات السرمدية (نشر عام 1876) ، علم المرح (1882) ، هكذا تكلم زرادشت (1885 – 1883) ، فيما وراء الخير والشر (1886) ، جينولوجيا الأخلاق (1887) ، حالة فاكنر (1888) ، إرادة القوة (نشرته أخته بعد وفاته) ، والفلسفة في عصر الإغريق التراجيدي (طبع بعد وفاته). لقد سببت كتابات نيتشه ، خصوصاً المسيح الدجال ، وهكذا تكلم زرادشت، الكثير من المصاعب الأكاديمية له . فمثلاً سدت بعض الجامعات الألمانية الطريق أمامه ليحاضر ويعلم فيها . فكانت محنة مضافة إلى قائمة المحن التي واجهها هذا الفيلسوف المتفرد .

فلسفته: يمكن التعرض لفلسفته من خلال جملة من النقاط

العقل: يعتقد نيتشه أنه لا يوجد عقل إنساني واحد متكامل وشامل يمكنه الحكم الكلي على الكون وعقلنة أحداثه وظواهره، في ظل هذه الصيرورة الكاملة، فالعقل ليس مستقلا عن

العناصر المحيطة به في الواقع، وحتى المنطق والأفكار الثابتة والعقائد لم تكن ثمرة رغبة في معرفة الحقيقة، وإنما الدافعية من خلق الثوابت ومنطقتها هي السيطرة والامتلاك، بعبارة أن المحرك هو الإرادة ولا شيء سواها. فالغرائز والنزعات نحو البقاء والقوة لها وجود أصلي حقيقي (بناء مادي تحتي) أما الفكر الذي يأتي لاحقا (بناء فكري فوقي) يتخذ أشكالا تبريرية للسلوكيات المادية الغريزية. فالأصل هو الفعل، والأخلاق ما هي إلا التبرير للأفعال إذ أن الدافعية برجماتية محضة. إذن، العقول تتمايز بتمايز الظروف والإرادات، ولذا قد تختلف الأراء إزاء أمر واحد.

وعندما أذعن لفكر الآخرين، ليس هذا الإذعان فعلا عقليا، إنما هو مجرد إذعان لإرادة القوة المنتصرة. فنجاح أية فكرة إنما يعبر عن مدى نجاح إرادة القوة في فرضها، فحقيقة نجاحك تكتسب من خلال الفرض والفشل عكس ذلك. ومنطق هذا الفكر هو منطق القوة وكما يسميه نيتشه الحقيقة الديونيزية "الحقيقة التي يؤمن بها الإنسان الأعلى".

الأخلاق: تساءل نيتشه كيف يمكن أن ننظر إلى شخص يكون فاضلا؟ فالشخص الفاضل الذي يثني عليه الآخرون لما قدم لهم من خيرات وفضائل (الطاعة، العفة، العدالة، المثابرة.. إلخ) سوف تضر بالفعل الشخصي الحائز عليها! وكما يقول "لو كنت حائزا على فضيلة .. فأنت ضحية لها"، وهكذا نثني على الفضيلة عند الآخرين لأننا نحصل منها على منافع ومميزات. فالمعتقدات الأخلاقية هي معتقدات الجموع، والجموع أكبر من الفرد "مع الأخلاق يمكن للفرد فحسب أن ينسب لنفسه قيمة بوصفه دالا على القطيع"، فالأخلاق تمثل أولئك الذين يكونون ضعافا من الناحية الفردية (وهم أفراد). لكنهم أقوياء من الناحية الجمعية (وهم مجتمعون) وهم يأملون أن تحميهم قوانين الأخلاق بقدر ما تبرر وجودهم وأسلوب معيشتهم. فالأخلاق هي النتيجة الحتمية للمصلحة الذاتية الإنسانية والدافع التطوري للبقاء. فالدافعية للأخلاق دافعية برغماتية محضة كما أسلفنا، فلا وجود للخيار الحر ولا وجود للثنائيات المتجاوزة.

الإنسان الأعلى: إن الأستقراطيين الممتازين هم أساس وأصل الحضارات الكبرى، فالحيوانات المفترسة الشقراء كانت تجوب الارض وتخضع الشعوب لسطوتها وتفرض عليها إرادتها وسلطانها، ومن ثم تختلق شرعة قيمية وأخلاقية تؤكد بها شرعيتها وسلطانها واستمرار سيادتها وسوطتها. وتعمل هذه الأقلية المسيطرة على الحفاظ على قوتها الجسمانية، وتحافظ على على نقاء نسلها من الاتصال بأعراق الطبقات الدنيا. وهؤلاء الممتازون يقدسون الأجداد وصفاتهم النبيلة، وتتحول هذه القداسة إلى طقوس عبادية تؤله فيها ذكرى الأجداد الذين أصبحوا آلهة – فيما بعد - تقدم القرابين لأرواحهم، أي أن العبد والمعبود هو الذات المؤلهة.

وبهذا المفهوم النيتشوي ينقسم البشر إلى أقوياء وضعفاء، فالأقوياء هم السادة الذين يبتكرون القيم الأخلاقية لتبرير أفعالهم المباشرة، فهم يتسمون بغريزة السيطرة وحب الغزو والمخاطرة ونعيمهم هو الانتصاروالسيادة، أما الضعفاء فقيمهم وسيلة لتغطية عجزهم ونكوصهم عن فرض إرادتهم.

إن الإله الحي المتجسد على الأرض الذي بشر به نيتشه هو الإنسان الأعلى "لا يمكن أن يكمن هدف الإنسانية في نهاية الزمان، بل فقط في أعلى نموذج لها" بالرغم أن هذه ليست حتمية إلا أن على البشرية أن تطمح لها كتحد للروح البشرية. ومن الأفراد التاريخيين الذين اقتربوا من هذا المثل الأعلى كما يصوره نيتشه أمثال: يوليوس قيصر، ونابليون. وقد هاجم

كثير من النقاد صورة الفرد الـذاتي الأنـاني الـذي يمجـد ذاتـه فحسـب، إلا أن نيتشـه وجـد أن الأنانية "الغرورية" تنتمي إلى ماهية الروح النبيلة!

وهذا الإنسان الأعلى سيولد من طبقة السادة الممتازين الـذين نبـذوا الأديـان الـتي تنفـر مـن الحياة الأرضية، والتي ساهمت في امتصـاص عناصـرالقوة وأبقـت البشـرية فـي حالـة ضـعف ووهن. إذن الإنسان الأعلى هو عودة للطبيعة المادية الأصيلة التي تجسـدت فيهـا إرادة القـوة وسوف تتجسد من خلاله تجسدا تاما (نقيض فلسفة شبنهور أستاذه في بداياته). ولا يسـعنا إلا أن نتخيل هذا "الإنسان الأعلى" بجيوش همجية يكتسح ما سواه!

وكما يقول نيتشه بصلافته النزقة وعجرفته المعهودة على لسان زرادشت: "على أهل السيادة في الإنسانية المتفوقة أن يمهِّدوا سُبُلَ السـعادة لمـن هـم دونهـم بتضـحية ملـذَاتهم وراحتهـم وعليهم أيضا أن ينقذوا مَنْ لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون إمهال".

يرى تشارلز دارون في كتابه "سلالة الإنسان"، "أن القبيلة المؤلفة مـن كـثرة الأعضـاء الـذين هم على استعداد دائما لمساعدة بعضهم البعض، والتضحية بأنفسهم من أجـل الصـالح العـام، سوف تنتصر على معظم القبائل الأخرى، وسوف يكون انتخابا طبيعيا."

ونيتشه عكس السيناريو تماما "فلندع القبيلة تضحي بنفسـها لـو أن ذلـك ضـروريا للمحافظـة على فرد واحد عظيم. إن ما ينبغي علينا أن نسعى لزيادته هو كيف البشرية لا كمها. إن الأمـة طريق ملتف للطبيعة للوصول إلـى سـتة أو سـبعة مـن الرجـال العظمـاء. نعـم وعندئـذ تـدور حولهم". فالصراع هنا ليس صراعا من أجل الوجود كما هو عند دارون، بل هو صراع من أجـل العظمة والقوة. كما نلاحظ أن هذه النظرة غير السوية للبشرية لن تخلـق لنـا سـوى مسـوخا بشرية تؤله الذات على حطام الشعوب! ولا شك أنهـا صـورة قميئـة مـن صـور الاسـتبداد، ولا يمكن أن تكون إلا نتيجة حتمية لولادة نظام وحشـي شـمولي يعلـي مـن قيمـة الفـرد الحـاكم "ظل الإله في الأرض".

العود الأبدي: وهي فكرة محورية في فلسلفة نيتشه "العود الأبدي" والتي تبدو بديلا لفكـرة الأبدية في الأديان السماوية، وهي أيضا قريبة الشبه من فكرة عقوبة سيزيف فـي الأسـطورة اليونانية، الذي عاقبه كبير الآلهة بعمل متكرر ورتيب، وليست بعيـدة أيضـا عـن فكـرة الكارمـا البوذية، إلا أن نيتشه يرى أنها عود أبدي مـادي رتيـب "كالسـاعة الرمليـة" سـيعود مـن جديـد ويذهب من جديد دائما وأبدا، فكل شـيء سـيعود بنفـس التسلسـل وبنفـس النتائـج. ويعـترف نيتشه بأنهـا فكـرة محبطـة جـدا وليسـت أكـثر إغـراء مـن فكـرة الجنـة والخلـود فـي الأديـان السماوية، إلا أنها محرض لكي نكافح لنكون أعظم مما نحن عليه، ومـادامت اللحظـة الراهنـة هي كل شيء، فلنستغلها أفضل استغلال محققين أفضل ما في أنفسنا.

فالزمان عندما تنتهي دورته الحالية لن يتوقف، إذ أنه سيبدأ مـن جديـد دورة أخـرى لا تختلـف عن سابقتها، والعود الأبـدي "يعنـي تكـرار اللحظـة بكـل ثباتهـا وصـيرورتها، ولكنـه ليـس تقبلا لمضمون اللحظة الثابتة، وإنمـا هـو تأكيـد لصـيرورتها"، وكمـا يقـول نيتشـه مخاطبـا اللحظـة: "فلتكرري نفسك إلى الأبد" أي إذعان كامل للصيرورة.

عبئ التاريخ: التاريخ بالنسـبة لنيتشـه يمكـن أن يهـدد الحاضـر، وذلـك بجعـل أمـم الماضـي العظيمة مثالية، ويحثنا على منافسة هذه الثقافات الميتة ولذا قال: "ليس لدينا نحن المحدثين ثقافة نقول عنها أنها ثقافتنـا، فنحـن نملأ أنفسـنا بعـادات وفلسـفات أجنبيـة، وكـذلك بـديانات وعلوم بحيث نصبح موسوعات جوالة" (استخدام التاريخ وإساءة اسـتخدامه) فتمثـل الماضـي

واستخدامه في صنع حياتنا وثقافتنا هو مسخ لإرادتنا، فالتاريخ ما هو إلا عبء ميت ثقيل على الحاضر. فما قيمة أن تمتلك قدرا وفيرا من التاريخ، لكنك لا تستطيع أن تعيش حياة أصيلة من صنعك؟! إذن، إن اسقاط التاريخ على الحاضر هو إعدام للمشروع الفردي للتحقق الذاتي والفعل في العالم. وكلما قلّ اكتراثنا بالتاريخ، كلما كنا أقرب لإنتاج ثقافة حية "حرية الروح"، وإلا سنظل "مجرد ظلال للإنسانية".

أهم تأثيراته في الفلسفة والفلاسفة: ترك نيتشه أثاراً جوهرية على مسارات الفلسفة والثقافة الأوربيين على حد سواء. فقد ظهر حضوره المتميز في تطور الفلسفة الوجودية ، وفي تفكير إتجاهات ما بعد الحداثة . ولعل إسلوبه المتفرد وسؤاله الراديكالي عن قيمة وموضوعية الحقيقة ، ولد أنوعاً متنوعة من التفسيرات الباحثة في نصوصه . ومن أفكاره المثيرة للجدل الدائم ومن ثم الإختلاف حولها : موت الله ، وإرادة القوة ، والسوبرمان ، والمسيح الدجال ...